فى الذكرى المئوية لميلاد الأستاذ الدكتور محمد البهى

obeikandi.com

obeikandl.com

فى الذكرى المئوية لميلاد الأستاذ الدكتور محمد البهى

إن حضارة الأمم لا تشيد بين يوم وليلة ، فليست المسألة تياراً كهربائياً تديرمفتاحه فينبعث النور فى الفضاء ، ولكنه عمل شاق ومتواصل من أبناء الأمة أجمعين ، فلا بد من إسهام كل فرد فى بناء صرح الحضارة ، سواء كان ذلك ابتكارات عقلية ، أو مجهودات عضلية ، غير أن أسس الحضارة ، ومراكز إشعاعها تكمن فى مجالات الفكر أوَّلاً ؛ فالمفكرون هم الذين يبتكرون بذورها ، ويهيئون تربتها ، ويمهدون طرقها ، فإذا فقدت الأمة العقل المبتكر ، ظلت قابعة فى سفح حضارات الأمم ، وإذا لُوِّث مناخ الفكر فى مجتمع ، ضل الناس طريقهم ، وتاهت محاولاتهم فى سراديب الفكر الملوث ، الذى يتعصب فلا يرى إلا نفسه ، وينكفئ على ذاته فلا يسمع صوت غيره ، مما يؤدى إلى تطرفه ، فيستخدم كلَّ سلاحه لإسكات الآخرين ، وعند ذلك يصاب المجتمع بالشلل التام ، فلا يقوى على تقديم أى إسهام فى مسيرة التقدم ، ويغرق فى بحار من ظلمات الجهل ، والادعاء الكاذب ، فيتناحر أفراده بدل أن يتحاوروا ، وتسود ظاهرة الاستعباد والديكتاتورية بدل أن يكون التشاور والمناقشة أساساً للحياة ، ويظهر على السطح من ينكفئ على الماضى ، فلا يرى حاضره ، ولا يفكر فى مستقبله ، فتتجمد الأفكار ، وبالتالى تتوقف المسيرة عن التقدم إلى الأمام .

ومن هنا ينبغى على الأمة – إذا أرادت أن تلحق بركب الحضارة – أن تُعنى بمفكريها ، فتهيئ لهم الظروف للبحث والابتكار ، حتى يمكن أن تخرج من أروقتهم أبحاث واختراعات، تكون أساساً ومنطلقاً يهيئ الظروف لكل فرد فى الأمة أن يسهم فى بناء الحضارة ، ويكون عمله قائماً على أساس سليم ، حتى يصبح لبنة سليمة فى بناء صرح التقدم والرقى .

كما ينبغى أن يلتزم كل من هيأت له ظروفه وإمكاناته العقلية أن يتبوأ مكاناً فى مجال الثقافة والمعرفة بأخلاق ومبادئ العلم والفكر ، فضلاً عن التزامه بالمسلمات الثابتة فى بناء هوية أمته ، التى شيدها الأسلاف وحافظوا عليها كجزء أساسى فى حياتهم الروحية .

فالعالم الذى يفكر فى هموم أمته ، ويسعى إلى الأخذ بيدها ، لتأخذ مكانها على طريق التقدم والرقى ، هذا العالم - :

- هو من يعى ذاته ويعتز بها ، ويترفع عن الدنايا ، ويبتعد عن كل ما يُحط من شأنه ، أو يُهين كرامته ، لأنه رأس الأمة ، فإذا فسدت الرأس ، اعتل الجسد كله ، فلا يقوى على الحياة ،
- وهو مصباحها الذى يقشع الظلام من طريقها ، فإذا طمس سطح المصباح بسفاسف الأمور ضلت الأمة طريقها ، فتتخبط فى ظلمات اليأس والقنوط .
- وهو الراية التى ترفرف فى أعلى السارية لتشرئب إليها الأعناق ، فاذا هوت إلى الأرض انكفأت الرؤوس فلا ترى ما يحلق فى السماء ، بل تستنشق تراب التخلف ، فتستعذب الخمول والكسل ، والركون فى زاوية النسيان ،وتسقط من صفحات التاريخ الحضارى .

هذا هو شأن العلماء والمفكرين بوجه عام ، لكن هناك من آتاه الله موهبة فذة فى الفكر والفهم والرؤى ، فاستخدم فكره خير استخدام فى فهم مبادئ عقيدة أمته وتعاليمها ، ورأى بثاقب فكره معالم العصر ومعطياته ، وأدرك الفجوة التى تفصل فكر السلف عن مقتضيات العصر .

ولأنه صاحب همة عالية ، وإيمان صحيح بعقيدته ، لم يركن إلى الكسل مدعياً أن ما قاله السلف صالح لكل زمان ومكان ، وأنه ليس بحاجة إلى مواجهة الفكر الجديد إلا برفضه وإنكار وجوده ، حتى ولو أطبق تيار الفكر الجديد على رقبته ، وسد عليه منافذ الحياة من كل جانب..... بل نفض غبار النوم عن عينيه ، وطرح الكسل بعيداً عن ساحته ، فتخلص من قيود الشلل والعجز الذى يصاب بهما كثير من المقدسين للنصوص البشرية ، وانطلق

يشرح تعاليم السماء بأسلوب عصرى يجمع بين التراث والمعاصرة ، ويصل النص المقدس بمناهج العقل والمنطق ، ويقرب تعاليم السماء حتى تكون مفهومة ومقبولة للإنسان أينما كان ، وحيثما وجد ، سواء كان فى مجتمع يعيش بأسلوب العصر الحجرى ، أو كان متربعاً على قمة الحضارة والتكنولوجيا .

ذلكم هى صفات قادة الفكر فى المجتمعات الإنسانية كلها ، يزيلون العقبات التى تعترض طريق الأمة ويمهدون السبل التى تجذب أفراد المجتمع إلى بذل الجهد والعطاء فى بناء حضارة أمتهم ، وينيرون الدروب حتى لا تضل القافلة ، ويتقدمون الصفوف لأنهم قاطرة المجتمع ، ولا يمكن لقطار أن يسير بدون قاطرة ، كما يستحيل عليه أن يتحرك إذا كانت القاطرة فى المؤخرة .

فموقع رواد التنوير فى المقدمة لتستمر الحياة ، ومكانهم فى القمة ، لأنهم لونزلوا عنها بحجة مداهنة الجماهير ، أو النزول بالمستوى حتى يفهم عامة الناس ، نُكِّسَتَ أعلام الحضارة ، وتدنت مفاهيم التقدم ، وانحدرت نماذج المحاكاة إلى الحضيض . فلا ترى الأمة من تحاكيه فى علوه وشموخه ، ولا تبصر هدفاً سامياً تشرئب أعناقها للوصول إليه ، بل الرؤوس منكسة إلى أسفل ، والهمم مترهلة متدنية ، لأنه ليس هناك من يشدها إلى السمو والرفعة .

إن من المستحيل أن ترى عالماً مبدعاً يقف فى السفح ، أو يتنازل عن كرامته ، مهما ارتفعت حوله الضغوط ، أو تنامت فى أذنه صيحات المهددين والمنذرين ، كما أنه لم – ولن – توجد أمة شيدت حضارتها بدون رواد يقودونها ، ويدفعونها إلى الأمام .

فالرواد هم واضعوا الأسس التى تقوم عليها الحضارة ، بل هم صانعوا الحضارة الأساسيون ، وهم الذين يهبونها الروح لتستمر فى التطور والارتقاء ، وليس هذا ادعاءً ينقصه الدليل ، فنظرة سريعة إلى حضارات الأمم قديمها وحديثها تبين أن رواد الفكر هم وقود التقدم والرقى .

فرواد الحضارة اليونانية هم :

" سقراط " ، و " أرسطو " ، و " أفلاطون " ، و " فيثاغورس " وغيرهم .

ومهندسو الحضارة الإسلامية كثيرون ، نذكر منهم على سبيل المثال :.

الأئمة الأربعة ، والفلاسفة " وعلماء الحديث ، والمفسرون ، وأعلام العلوم التجريبية : كابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والرازى ، وغيرهم كثير فى شتى نواحى المعرفة ، سواء كانت نظرية أو عملية .

ومن أعلام النهضة الأوروبية :

" لوك " ، و " هيوم " ، و " نيوتن " ، و " فولتير " ، و " لاينتز " ، و "كانت" ، و " جوته " و " جاليليو " ، و " ديكارت " ، و " شوبنهاور " وغيرهم .

ومن رواد النهضة فى المجتمع الإسلامى :

جمال الدين الأفغانى ، و محمد عبده ، و طلعت حرب ، و العقاد ، و المراغى ، و شلتوت ، وغيرهم كثير .

ولا يقل المرحوم الدكتور محمد البهى مكانة عن هؤلاء جميعاً ، عربيهم وأعجمهم ، فهو المفكر الرائد الذى بذل أقصى ماوسعه من جهد ليحتل مكانة فى أعلى قمة الرواد ؛ فقد فهم التراث الإسلامى ، وتعلم مناهج الغربيين وعرف أساليبهم ، وتصدى للمهاجمين للإسلام ، سواء كانوا مستشرقين غربيين ، أو ماركسيين شرقيين .

فمن يقرأ كتابه : " الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى " يدرك عمق الفهم للفكر الإسلامى ، وبراعة العرض بأسلوب عصرى ، رفع الغموض الذى كان سبباً فى نفور الدارسين من مطالعة كتب التراث فى مجال علم التوحيد.

وقد كان الدكتور البهى يرى – كما فهمنا ذلك من دروسه ومناقشاته فى الجلسات الخاصة – أن المفكرين المسلمين فى عصر صدر الإسلام قاموا بواجبهم خير قيام فى الدفاع عن الإسلام فى مواجهة المذاهب والأديان التى كانت موجودة فى الأقطار المفتوحة ، وسجلوا لنا ذلك فى مؤلفاتهم التى بين أيدينا الآن فإذا وجدنا الآن تياراً معادياً يشبه ما واجه سلفنا ،

استخدمنا ما كتبوه فى مواجهة هذا التيار مع الأخذ فى الاعتبار إعادة صياغته بأسلوب يفهمه الإنسان المعاصر . أما ما استجد من أفكار ومذاهب وتيارات معادية ، فلا ينبغى مواجهتها بمنطق وأسلوب السلف ، وإلا كنا مرددين لحجج ليس لها مجال الآن فى الثقافة المعاصرة ، وصار مثلنا مثل من يحارب فى نهاية القرن بأسلحة ومعدات أوائل القرن ، ولهذا ينبغى على العلماء وضع منهج جديد فى علم التوحيد ، حتى يصبح النقاش وتبادل الحجج مع الآخرين مفهوماً ومُقْنِعاً .

أما أن نردد ما قاله السابقون ، وننكفئ على الماضى بنصه وفصه تاركين الساحة للمناوئين الذين يتحدثون بلغة العصر ، فذلك انسحاب من الساحة ، وإعلان بالهزيمة أمام التيارات والثقافات الواردة ! فيجب على العلماء أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم – كما فعل أسلافهم – فى فهم الفكر الوارد ، والرد علي ما ينبغى الرد عليه ، فهو يقول بالنص : .

" إن الأمة الإسلامية فى حاضرها لاينبغى أن تغلق النوافذ دون الفكر المعاصر ،كما لم تغلقها دون الفكر الإغريقى فى الماضى ، ولا الفكر الفكر الفارسى ، أو الهندى ، أوالدين المسيحى واليهودى . ولكن يجب أن تتريث فى قبوله ، ولا تتوانى فى رده ، إن كان يحمل خطراً يهدد وجودها واستقلال ذاتيتها ، كما فعلت بالأمس . " [الجانب الإلهى صـ 6 ، طـ 6]

لم يقتصر حديثه على ترديد هذه النغمة – نغمة ضرورة رد الفكر المناوئ ومواجهته كما يفعل كثيرون – بل أسهم بالفعل – لا بالقول فقط – إسهاماً كبيراً فى هذا المجال ، فكتب العديد من الكتب فى جميع مراحل حياته ، ابتداء من كتاب : " الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى " مارًّا بـ : " الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر " ، و " الإسلام واتجاه المرأة المعاصرة " ، و " خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر " ، و " العلمانية وتطبيقاتها فى الإسلام : إيمان ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر " ، وغيرها من الكتب التى تعد بحق الأسس التى ينبغى أن تبنى عليها مناهج علم التوحيد المعاصر فى الكليات المتخصصة .

فقد واجه المستشرقين فى كتابه : " الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى " بمنهج واضح ، ومنطق عجز عن الرد عليه أساطين علمائهم ، كما واجه فيه تيار العلمانية الذى روج له بعض المفكرين فى عشرينات هذا القرن ، ورد على القضايا التى أثاروها ، وفند المزاعم التى رددوها فى مجال :

بشرية القرآن ، والإسلام والسياسة ، ووحدة الدولة فى ظل الدين ، وخرافة الميتافيزيقيا ..... وغيرها .

كما ألقى الضوء على جذور المذاهب الإلحادية وانتشارها فى العالم ، وترديد بعض المفكرين المسلمين لها ، ورد عليهم ، ثم ختمه بالحديث عن الإصلاح الدينى فى مواجهة التيارات الإلحادية . فهو بلا شك يعتبر من الكتب التى تركت أثراً واضحاً فى الفكر المعاصر.

ولو لم يكتب الدكتور محمد البهى إلا هذا الكتاب لكفاه مؤهلاً له فى أن يتبوأ به مكانة عليا على قمة الرواد والمصلحين ، ولكنه لم ينقطع عن الكتابة حتى آخر يوم فى حياته . وكان شجاعاً فى المواجهة ، لم ترهبه سلطة ، ولم يرتجف قلمه من تهديد فقد نشر كتابه : " العلمانية بين الفكر والتطبيق " يوم أن سكتت الأصوات ، وقصفت الأقلام ، ولزم كل حر داره .

ولم يكن خطه الفكرى قاصراً على توضيح معالم الفكر الإسلامى فى تراثنا ، والرد على المناوئين ، بل كتب فى جميع المجالات التى تتصل بالمسلم وبالمجتمع الإسلامى ، فمن أهم كتبه فى هذ المجال :

"الفكر الإسلامى الحديث والمجتمع المعاصر - مشكلات الحكم والتوجيه " ، و " الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر - مشكلات الأسرة والتكافل " ، تحدث فى هذين الكتابين عن نظام توزيع الثروة فى الإسلام ، ووظيفة المال فى المجتمع ، وعن الديمقراطية ، والحرية ، والاشتراكية الماركسية .... كما تحدث عن نظرة الإسلام إلى واقع الأسرة فى المجتمع الصناعى ، وعن الزكاة ، والتأمين ، وغيرها من الأمور التى تهم الإنسان المعاصر ، والمشاكل التى يعيشها المسلم وسط هذه التيارات المتصارعة ، فقد كان يرى أن العالِم الذى لا يهتم

بأمور المسلمين ، ويبذل قصارى جهده لإيجاد الحلول لمشاكلهم ، لم يؤد واجبه الذى فرضه الله عليه ، ولذا نجده أفرد للمشكلات الرئيسية كتاباً بذاته ، وهو بعنوان : " الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة " ، مثل مشكلة العمل والعمال فى المصانع ، ومشكلة التأمين والبنوك ، ومشكلة ازدياد السكان .... وغيرها من المشكلات التى لازال الحديث عنها دائراً حتى الآن .

لا أريد الاستطراد فى الحديث عن مؤلفات الدكتور البهى ، لأنها كثيرة ومتنوعة ، ولا يتسع المقام لإعطائه حقه فى الحديث عنها ، فهى تحتاج إلى مجلدات ، غير أنى لا أحب ترك الحديث عنها دون بيان زاوية فيها ، على جانب كبير من الأهمية فى مجال الدعوة الإسلامية ؛ ذلك أنه ارتفع فى عرض مبادئ الإسلام وشرح نصوصه المقدسة إلى مستوى لا يدركه إلا الصفوة ، فقد كان يرى أن البُعد عن تعاليم الإسلام يظهر أولاً فى محيط المهيمنين فكرياً ، وسياسياً ، واقتصادياً على مقاليد الأمور فى المجتمع ، وهؤلاء بحكم ثقافتهم واتصالهم بالفكر الآخر ، يحتاجون إلى من يبين لهم أن تعاليم الإسلام :

- لا تتعارض مع معطيات العصر ،
- ولا تصطدم مع فكرة أو مبدأ ينفع الإنسان ، ويرفع من شأنه ،
- ولا تتصادم مع أى نظام فى أى مجال من مجالات الحياة ، مادام هدفه رقى المجتمع وتطوره ، دون أن يخلف آثاراً سيئة تخل بنظام الكون ، أو تنعكس سلبياً على قيم الحياة ومثلها العليا .

ومن ثم اتجه فى تفسيره لآيات القرآن الكريم إلى تأويلها – فى حدود مفهوم النص – تأويلاً :

- يقبله العقل ،
- ويطمئن إليه الوجدان ،

- ويسلب المناوئين أمضى أسلحتهم التى يشهرونها ضد الإسلام والمسلمين ، ألا وهو أن الإسلام دين خرافات وأساطير ، لا يقبل العقل بعض ما جاء فى نصوصه المقدسة ،
- ويفحم كل من ينكر أن الإسلام دين الحاضر ، كما كان دين الماضى ، وهو أيضا دين المستقبل ؛ فالقرآن الكريم يخاطب العقلية البَدائية ، ويسيطر على وجدانها ، ويوجهها إلى ما ينفعها ، كما يخاطب العقل الذى يتعامل مع أرقى التكنولوجيات ، بأحدث معداتها وآلاتها .

وسوف نكتفى بمثال واحد يبين ما أوجزناه ، لأن المقام لا يتحمل الإسهاب ، يقول الله تعالى :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ ﴾ [هود 64]

فماذا قال المفسرون ؟

قالوا :

1. إنها كانت آية بسبب خروجها من الصخرة .
2. إنها كانت آية بسبب أنها كان لها شرب يوم ، واستيفاء ناقة شرب أمة عجيب .
3. إنهم كانوا يحلبون منها القدر الذى يقوم لهم مقام الماء فى يوم شربهم .
4. إن جميع الحيوانات كانت يوم مجيئها الماء تمتنع من الورود على الماء ، وكان يوم امتناعها تأتى (أى الحيوانات) الماء .

فلو فرض أنى كنت ألقى محاضرة لمجموعة من العلماء والفلاسفة من غير المسلمين ، وقلت لهم هذا التفسير ، فهل يقبلونه ؟ وهل تستسيغه عقولهم ؟

لاشك أنى لو اقتصرت على هذا التفسير ما وصلت إلى الهدف الذى أسعى إليه ، ألا وهو إعطاؤهم صورة مقبولة عقلياً عن الإسلام ؛ لأن هذا التفسير سوف يكون بمثابة غيوم

obeikandi.com

تحجب الإسلام عن هؤلاء ، كما جاء فى عنوان أحد الكتب التى ألفها الدكتور محمد البهى .

فإذا أردت تبديد هذه الغيوم ، وجب علىَّ أن أعرض عليهم رأى الرازى ، حيث يقول :

"..... وليس فى القرآن إلا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة ، فأما بيان أنها كانت معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه ... " [التفسير الكبير : جـ 17 صـ 16]

وعليه فإن ما يقوله العلماء ، هو أقوال ظنية لاتفيد اليقين ، فلا يمكن أن نحمل القرآن الكريم مالم يفصح عنـــه .

لقد أفصح الدكتور محمد البهى عما لم يستطع الرازى أن يفصح عنه ، لأن ظروف عصره (أى الرازى) لم توجهه إلى ذلك . ونص ما قاله فى هذا الصدد :

" وضعهم صالح مع الاختبار العملى فى طاعة الله ، فأتى لهم بناقة ، وطلب منهم أن يتركوها تأخذ حصتها فى المراعى والمياه ، كما يأخذون هم لإبلهم حصصها ، فإن تركوها تصنع ذلك ، كان تركهم إياها دليلاً على طاعة الله فى تطبيق العدل بين كبرائهم وضعفائهم فى المشاركة فيما هو مباح للجميع ، وهو المراعى والمياه . وإن هم ظلوا واقفين عند استبدادهم بالمراعى والمياه لإبلهم وحدها ، كان ذلك آية على استمرارهم على الظلم والعصيان لرسالة الله ، وحذرهم من استمرارهم على الظلم ....

ومعنى كون الناقة آية لثمود :

أنها اختبار وفتنة لهم ، كما صرح فى قوله تعالى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر : 28]

فالناقة إذن لم تكن من نوع خاص ، ولا يخرج وضعها عن أن تكون محل الاختبار فى موقفهم العملى من رعاية حقوق الضعفاء الآخرين ." [تفسير سورة هود : 60]

obeikandi.com

لاشك أنه عندما ينقل الداعية ذلك التفسير لمن يخاطبهم من أرباب القلم والفكر ، فلن يجرؤ أحد منهم على أن يقول : إن الإسلام يناسب عصراً دون آخر ، أو أنه جاء لقوم محدودى الثقافة ، وليس للعلماء والفلاسفة ؛ فمعجزة القرآن الأولى تكمن فى أن نصه :

- يخاطب كل المستويات ، فيفهم كلٌ حسب قدراته الذهنية ، دون أن تشوش على عقولهم الجوانب العليا التى لا يدركها إلا الخاصة ،
- ويقنع المفكرين بعالمية الإسلام زماناً ومكاناً ، فمن آتاه الله موهبة فى الفكر ، وقدرة على الفهم ، ودفعه إيمانه القوى إلى الاطلاع والمقارنة والاستنتاج ، بغية عرض تعاليم الإسلام بما يناسب العصر ، ويتناغم مع وقع الحياة ، صار منارة من منارات الإسلام ، وتلك هى صفات الدكتور البهى ؛ فقد كان يحرص دائما على تنقية الفكر الإسلامى مما علق به من شوائب حتى يمكن عرض تعاليم الإسلام صافية نقية ، براقة تقنع العقول بمنطقها وتساميها على كل الأيديولوجيات المعاصرة .

ومن هذا كله يتضح جلياً أن المرحوم الدكتور محمد البهى كان متعدد المواهب ، أنتج فى كل مجالات الفكر الإسلامى ، وله بصمة واضحة فى كل ما يحتاج إليه الداعية الآن ؛

- كتب فى الفلسفة والحضارة الإسلامية ،
- وواجه المناوئين للإسلام على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم ،
- ووضع حلولاً لمشكلات يواجهها المجتمع ، سواء كانت تتعلق بالشباب ، أو تتصل بالأسرة والحكم والتوجيه ، أو بالنظم السياسية ، والاقتصادية ، والقومية .
- كما كتب أيضاً فى الفقه ، فله كتابان من الحجم الضخم ، جزء أول وثانى ، بعنوان : " الدين بين السائل والمجيب " .

أليس هذا كله كافياً لأن يتبوأ صاحبه مكاناً سامياً على قمة رواد هذه الأمة !!!!!!!

إن الإنتاج العلمى له كافياً لتصدره طابور المصلحين فى المجتمع الإسلامى ، بل هو متفوق عليهم أيضاً فى مجالات أخرى ؛ إذ من الشائع أن العالِم الذى يشتغل بالتدريس والتأليف لا يحسن الإدارة ، حتى شاع عن الأزهريين أنهم لا يعرفون شيئاً على الإطلاق فى عالم الإدارة ، فجاء الدكتور محمد البهى وأبطل هذه القاعدة ؛ فكما كان فذاً فى الجوانب العلمية والبحثية ، كان أيضاً نموذجاً فريداً فى الإدارة ،بحيث أصبح الناس حتى اليوم – بعد مرور أكثر من خمسين عاماً على تركه مواقع الإدارة – يتذكرونه ، كلما لاح لهم خلل فى النواحى الإدارية ، أو عانوا من البطء فى تسيير الأمور .

كان مثلاً أعلى للالتزام فى كل جوانب حياته ، وكان أسلوبه فريداً فى الانضباط الإدارى فى عصر لم يتحدث الناس فيه عن هذا الجانب ، كما هو ملحوظ اليوم فى الصحافة ، وتصريحات المسئولين ، فقد كانت الفوضى هى السائدة آنذاك ، وعليه فلا أكون مغالياً إذا قلت : إنه كان سابقاً لعصره وأوانه بمائة سنة على الأقل .

كان أزهرياً تفانى فى خدمة الأزهر والأزهريين ، حرص أشد الحرص على مساعدتهم لتحصيل العلم والثقافة ، أينما كانت وحيثما وجدت ؛ فعندما كان يحاضرنا فى كلية اللغة العربية ، كنا نحس ، ونلمس من كلماته وتوجيهاته ، أنه يريد أن يُخرج علماء قادرين على نشر الإسلام وتعاليمه بالقول والعمل فى كل أرجاء الدنيا ، فكان يحرص على دخول المدرج فى أول دقيقة من زمن المحاضرة ، ولا يضع ثانية واحدة دون أن يستفيد منه الطلاب معلومة أو توجيها ، ويظل فى المدرج يُعلم ويناقش ، ويُوجه حتى آخر دقيقة ، ولذا كان الإقبال من الطلاب على سماع محاضرته كبيراً ، حتى من بعض الطلاب الذين لم يكونوا فى قسم الفلسفة بالكلية ، لغزارة علمه ، ووضوح منهجه فى الشرح ، وإحساس الطلبة بأنهم قريبون من هذا العملاق الشامخ .

أنشأ القسم الحر لتعليم اللغات الأجنبية قبل أن يصدر قانون تطوير الأزهر بسنوات عديدة ، لحرصه على تخريج أزهرى ، قادر على عرض تعاليم الإسلام ومبادئه لغير الناطقين بالعربية ، ثم تحول هذا القسم إلى معهد الإعداد والتوجيه ، لا يُقبل فيه إلا متخرجو الكليات

التقليدية - الشريعة ، وأصول الدين ، واللغة العربية - ليُعَدوا إعداداً خاصاً ، حتى يُرسلوا إلى البلاد الإسلامية وغير الإسلامية فى كافة أنحاء الكرة الأرضية .

أين هذا المعهد الآن ؟

لقد حولوه بالتدريج حتى صار كلية للغات والترجمة ، تضم ثلاثة عشر قسماً بثلاث عشرة لغة ، يتخرج منها الطالب ليعلم لغة فقط دون أن يكون مؤهلاً لشرح أى من تعاليم الإسلام ومبادئه .

لم يدخر وسعاً فى المحافظة على أوقاف المسلمين ، وتدعيم البحوث الأكاديمية فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وخدمة الأئمة فى وزارة الأوقاف . واسمحوا لى أن أقرأ نصاً من مذكراته ، يلقى الضوء على المعدن الأصيل لهذا الرجل ، الأمين ، الوفى لدينه ، ومعهده ، وإخوانه الذين كانوا يعملون معه فى حقل الدعوة الإسلامية :

" كان هناك حوادث عديدة ومفجعة عند تسليم عقارات الأوقاف إلى الحكم المحلى . وكلها تدل مع الأسف الشديد : على الانتهازية ، واستباحة أموال المسلمين من رجال الحكم المحلى .

وأردت أن لا تضيع هذه الأوقاف ، وتضيع معالم ملكيتها المحبوسة على خير المسلمين ، فتوسعت فى تسجيل " حجج الأوقاف " وتصويرها ، وتلخيص مضمونها فى سجلات تُعد وتُطبع ، وعينت أربعين من متخرجى كلية الشريعة بالأزهر للمساعدة فى إنجاز هذه الرسالة .

وفعلاً سار العمل فيها بدفعة قوية ، وأُنجِز عدد كبير من الحجج . ولكن ما إن خرجت من الوزارة حتى عاد الركود من جديد إلى تسجيل الحجج ، ووُزع الموظفون فيها على إدارات أخرى . والروح التى وُجدت بعد خروجى من الوزارة لدى المسؤولين فيها ، هى روح تتبع للأعمال التى أنشأتها ، أو ساعدت على إنمائها للتمويه أو للتستر على القصد الأصيل من إخراجى منها ، وما أُخرِجت إلا استجابة لأصحاب الشورى فى تطبيق الماركسية فى الوطن العربى ، ومصر فى المقدمة . وإلا :

- ما السبب فى إلغاء دار القرآن الكريم ، وهدم مسجد " أولاد عنان " ليقام مسجد " الفتح " بدلاً منهما بعد اعتماد مليون وربع المليون من الجنيهات من بقايا حساب الأوقاف فى عشر سنوات ؟
- وما هو السبب فى إلغاء مساكن الأئمة وبالأخص فى الوجه القبلى ، بعد توزيع سبعمائة وخمسين ألفاً من الجنيهات لهذا المشروع على المحافظين ، وشروع محافظة البحيرة بالفعل فى إقامة هذه المساكن ؟
- ما هو السبب فى إلغاء مشروع ضم الأئمة إلى مدرسى الأزهر فى كادر واحد ، وتعيين شيخ المعهد الدينى الثانوى مديراً للدعوة بالمحافظة ، كما هو مشرف على معاهدها ؟

ومشروعات أخرى عديدة لو نفذت لكان علماء الأزهر أصحاب زيادة حقاً ، ولم يكونوا دعاة سياسة لا يؤمنون بها ، ولم يشتركوا فى وضعها ." [حياتى فى رحاب الأزهر : صـ 82 - 83]

لا ينبغى لأحد أن ينسى أو يتناسى ما قدمه المرحوم الدكتور محمد البهى لدينه ، ولمجتمعه الإسلامى ، ولبنى وطنه من الأزهريين وغيرهم ، فليس من سمات الدول المتحضرة أن تنسى رواد تنويرها ، حتى ولو اختلفوا مع أصحاب القرار فى الرأى .

بل إن من العار أن ينسى الأزهر أحد أبنائه الذين أفنوا حياتهم فى خدمته ، فلا يخلد ذكراه بإطلاق اسمه على أكبر وأهم مبنى فى هذا المعهد العتيق ، ليُذكر الأجيال بما فعله هذا الرجل لهذا المعهد ولأبنائه ، حتى يقلدوه فى مجالات تحصيل العلم ونشره ، وخدمة الأزهر ومؤسساته

فرحم الله الأستاذ الدكتور محمد البهى ، وأسكنه فسيح جناته .